خاتمة القول فى بيبرس

خاتمة القول فى بيبرس

نجح بيبرس فى سياسته التى كانت ترمى إلى إعلاء شأن مصر، فأخضع الصليبيين ببلاد الشام واستطاع أن يبسط نفوذه على بلادهم، كما صدّ غارات المغول عن مصر ومدّ حدودها جنوبا فى بلاد النوبة إلى حدّ لم يبلغه سلطان من قبله . وفى ذلك يقول صاحب[1] كتاب "المناقب السرية المنتزعة من السيرة الظاهرية" : "كان الملك الظاهر قد ملك فأسجح[2]، وسعى فى ذات الله فأنجح، وقام بأعباء السلطنة أيما قيام وسهر فى إقامة منار الإسلام والناس نيام، وأعمل الركاب فى قطع شوكة عدوّ الله من الفرنج والتتار ... وجاء والنصر فكأنما كانا على ميعاد . فلم يزل رحمه الله يدأب فى افتتاح الحصون المغلقة ... ومهاجمة العدوّ فى عقر الدار، واستئصال شأفة الفرنج والأرمن والتتار ... فدوّخ البلاد وسلب الطارف والتلاد، وبدأ فى غزو أعداء الله بنفسه، وأغار وهاجم وتجهّم، وحكم وتحكم، وعلم وعلم وهزم الجيوش وأوحش حتى الوحوش، واستغرق مدّة ملكه فى بلاد يفتتحها وغزوات يختمها بالنصر ويفتتحها . وأفنى العداة بعزائمه الماضية وهزائمه التى هى بالدمار على الأعداء قاضية، ومعاركه التى ما برحت لوعد الله فى نصره عليهم متقاضية، وجعل الكنائس مساجد والبيع لذكر الله معاهد، وأعدم المغل من التتار، وأخلى منهم الدار والجار، وأدب بسيفه من جار ... " .

كذلك كسب بيبرس محبة الأهلين بما سنه من القوانين وما اشتهر به من الحكمة والخضوع لأحكام الشريعة الغراء وتقديس فرائضها والعمل على ترقية شئون البلاد وتنمية مواردها، فحفر الترع وأصلح الحصون وأسس المعاهد الدينية والمساجد التى

---

(١) شافعى بن على بن عباس : ورقة ٣ أ — ٣ ب .

(٢) أسجح = عفا .

كان يجلس فيها العلماء و يؤمها الطلاب من أقاصى البلاد ، وأعاد الأزهر الى سابق مجده؛ فسجل اسمه بذلك فى سجل العظماء وصحيفة الملوك المصلحين .

على أن هذا لم يكن كل ما اشتهر به بيبرس؛ فقد امتاز أيضا بشجاعته وعدالته. تظهر لنا شجاعته فى جميع أدوار حياته المختلفة فى القيادة والملك . فأيام كان قائدا ظهرت شجاعته فى كثير من المواقع الحربية ، نخص بالذكر منها موقفه إزاء الصليبيين فى موقعة المنصورة التى انتهت بانتصار المصريين على الصليبيين ، وكذلك فى موقعة عين جالوت التى صدت فيها جيوش قطز بقيادة الأمير بيبرس جيوش التتار التى أغارت على بلاد الشام إغارة أخافت الأهلين وأوقعت الرعب فى قلوبهم . فكان لبيبرس الفضل الأسمى والقدح المعلى فى إعادة الطمأنينة إلى نفوس المسلمين، و إزالة ما نزل بهم من خوف و رعب، وما حل بهم من اضطراب إزاء إغارة هذا العدو المدمر . ونرى أيضا شجاعته عند ما تولى سلطنة مصر متمثلة فى كل الوقائع الحربية التى فصّلنا القول فيها ، وطالما — كما رأينا — كللت بالفوز وتوجت بالظفر بهمة بطلها و رجل حلبتها بيبرس .

أما عدالة بيبرس فتتجلى لنا — عند ما أصبح قائدا — فى معاملته العسكر معاملة حسنة ليس فيها محاباة لشخص ولا ظلم لآخر؛ فكلهم عنده سواسية ، لا تفضيل بينهم ولا إيثار لأحدهم على الآخر مهما بلغت صلته به إلا بعمل جليل يقدّمه للدولة . ونرى أن تلك الصفة قد ظهرت فأضاءت جزءا عظيما من صحائف التاريخ حينما صار بيبرس سلطانا على مصر وما إليها من البلاد التابعة لها . فقد كان أحسن مثل للحاكم العادل، يجلس بنفسه للظالم فيقضى بين الناس بالعدل و يرد الحقوق إلى أصحابها ، و يضرب على أيدى المعتدين والعابثين بالنظام والأمن ولو كانوا من خاصته .

كذلك خفف بيبرس أعباء الحياة عن شعبه ، وذلك بعطفه على الفقراء والمعوزين. فأرفد المساكين بالعطايا والنعم الجزيلة ، وظهر ذلك جليا عند ما اشتد الحال بالناس سنة ٦٦٢ هـ وعدمت الأقوات وضج الفقراء من الجوع فأحصاهم ، وكلف كل أمير

بالانفاق على عدد معين منهم وتولى هو بنفسه الانفاق على خمسمائة فقير، كما عمل على تخفيف آلام ذوى العاهات، فنقلهم إلى مدينة الفيوم وأفرد لهم بلدة تغل عليهم ما يكفيهم (١).

ولم يكن بيبرس بالرجل المعتدل فى كل أموره؛ فقد أخذ عليه المؤرخون غدره بتوران شاه وقطز وعدم وفائه بالعهد الذى أعطاه للملك المغيث . لكنا نقف من الحكم عليه على هذه التهم موقف الحيطة والتدبر، فنرى أن الحادثين الأولين كان الباعث عليهما خوفه على حياته من أن تمتد إليها الأيدى بالقتل. فإن تورانشاه كان قد اعتزم الفتك بجميع المماليك البحرية بما فيهم بيبرس، فارتكب هذا ما ارتكب تخليصا لنفسه ولقومه . وأما ثانية هذه الحوادث فسببها أن قطز كان قد وعد بيبرس بأن يوليه ولاية حلب، ثم لم يلبث بعد ذلك أن نقض وعده و بيّت فوق ذلك مكيدة أراد بها أن يقضى على حياة بيبرس . وبذلك لم يكن هناك بد فى هاتين الحادثتين من التخلص من عدو بات يتربص به دائرة السوء ويترقب له مصرعا عاجلا . ونحن لذلك نخالف المؤرخين فيما ذهبوا إليه فى تصوير هذه الحوادث . فهو لم يقصد إلى الغدر قصدا ، وإنما أراد الدفاع عن النفس وهو أمر مشروع. أما ثالثة هذه الحوادث فإن بيبرس لم يقتل الملك المغيث إلا حينما اتصل به تواطؤه مع التتار على القضاء على المماليك . عرف بيبرس هذه المكيدة المدبرة من المكاتبات التى دارت بين الفريقين المتآمرين والتى وصلت الى يده وقرأها على رجال دولته حتى لا يعتقدوا أنه غدر بالمغيث . هذا من جهة، ومن جهة أخرى فإنه بعمله هذا أراد أن ينبههم إلى الخطر المحدق بهم وببلادهم ليشاركوه حرصه على حماية البلاد واتخاذ التدابير اللازمة لذلك .

وأما ما ينسب اليه من مصادرة أموال بعض الأغنياء، فنحن نعتقد أنه مافعل هذا إلا لإعداد جيشه . والرجل الذى أسس دولة حديثة نتطلع اليها نفوس الغزاة

(١) المقريزى : السلوك ج ١ القسم الثانى ص ٥٠٧ — ٥٠٨ و ٥٥٣ .

وعيون المحاربين لفى شـدة الحاجة الى المـال الذى يعزز به كيان دولته ويقوى به جنده . وليس فى استطاعتنا أن نتصور من أين يجمع الأموال لإعداد جيوشه إذا لم يحصل عليها من هـذه الناحية . فقد كان على هؤلاء الأغنياء أن يقدروا خطورة الحالة التى تحيط ببلادهم ، وأن يخرجوا عن بعض أموالهم فى سبيل حماية بلادهم والزود عن حياضها . فإن الرجل وماله ملك لدولته فى وقت الخطر . وما دامت حياته تعـد رخيصة بجانب حفظ كرامة بلاده فأولى ثم أولى ماله . لذلك لا نعد عمـل بيبرس مصادرة بالمعنى المعروف ، وإنمـا هو درس وطنى يلقيه على هؤلاء البخلاء الذين كان يجب عليهم أن يبذلوا عن سعة كما قال تعـالى : ﴿ وجاهدوا فى سبيل الله بأموالكم وأنفسكم ﴾ . وهذا خير من إرهاق الضعفاء والفقراء من أبنـاء الشعب بضرائب لا قبل لهم بها ، ممـا يؤدى الى ثورتهم فى وقت كانت البلاد فيه أحوج ما تكون الى الهدوء والسكينة .

وفاة بيبرس

لم يكد الملك الظاهر يتمتع بثمرة جهاده ونتائج أعماله حتى عاجلته المنية على أثر عودته الى دمشق من موقعة قيسارية .

وقد تضاربت أقوال المؤرخين فى سبب وفاته . فيذكر أبو الفدا[1]، وبيبرس الدوادار[2]، والشيخ قطب الدين اليونينى[3] أنه مات مسموما . غير أن المؤرخين الأولين يرويان لذلك رواية نستبعدها ولا نطمئن الى صحتها فيقولان : إنه لما انخسف القمر خسوفا كليا وشاع بين الناس أن رجلا عظيم القدر سيموت ، أراد الملك الظاهر أن يصرف التأويل الى غيره ، فدعا الملك القاهر الأيوبى لشرب القمز[4] معه . ولما قدم اليه دس له السم وأخطأ الخادم فوضع لبيبرس القمز فى الكأس الذى شرب منه الملك القاهر فاعترته الحمى ، ولم يلبث بعد ذلك أن مات فى يوم الخميس السابع والعشرين من المحرم سنة ٦٧٦ هـ . أما اليونينى فإنه يعزو دس السم للملك القاهر الى سببين : (أولهما) حقد بيبرس على ذلك الأمير عندما كان معه ببلاد الروم وأبلى بلاء حسنا كان موضع اعجاب الناس ، و (ثانيهما) استياء الملك الظاهر منه لأنه انتقده على توريطه عساكره ببلاد الروم ، فأسر له ذلك الى أن قدم دمشق ، فدعاه لشرب القمز معه ودس له السم .

ويروى المقريزى[5] رواية أخرى هى أقرب الى الحقيقة من الروايات السالف ذكرها ، وهى أن بيبرس على أثر قدومه الى دمشق جلس فى يوم الخميس ١٤ من المحرم سنة ٦٧٦ هـ يشرب القمز . وقد عظم سروره من انتصاره على المغول والروم ، فأكثر من الشرب . ولما انتهى من ذلك شعر بفتور وتوعك واشتد عليه الألم

(١) المختصر فى أخبار البشر ج ٤ ص ١٠ (٢) زبدة الفكرة فى تاريخ الهجرة ج ٩ ورقة ١٢٦ (٣) الذيل على مرآة الزمان ج ١٧ ورقة ١١٢ — ١١٣

(٤) القمز : نبيذ يعمل من لبن الخيل . وكان بيبرس مشغوفا بهذا النوع من الشراب Stanley Lane - Poole, A History of Egypt in the Middle Ages p. 273

(٥) السلوك لمعرفة دول الملوك ج ١ القسم الثانى ص ٦٣٥

عندما ذهب الى ميدان دمشق فى اليوم التالى، جُهز له بعض خواصه دواء لم يكن ناجعا . فاستدعى الأطباء فأشاروا عليه بأخذ دواء مسهل . غير أن ذلك لم يخفف عنه وطأة المرض، فظلت قواه تضعف حتى قضى نحبه، فكتم الأمير بدر الدين بيلبك الخازندار نعيه عن الجمهور وأرسل الى الملك السعيد يخبره بوفاة والده، ثم وضع جثة الملك الظاهر فى تابوت ونقلها الى قلعة دمشق، فظلت هناك الى أن اشترى الملك السعيد دار العقيق بدمشق وأعدها لتكون مدفنا لوالده . ولما تمت عمارتها احتفل بدفنه بها فى ليلة الخامس من شهر رجب سنة ٦٧٦ هـ بعد أن صلى عليه فى صحن جامع دمشق (١) .

وهكذا انتهت حياة ذلك الملك العظيم والقائد المحنك والسياسى الماهر، فطويت بموته صفحة من صفحات المجد والعظمة، ورثاه كاتب سره محيي الدين ابن عبد الظاهر بهذه الأبيات (٢) .

الله أكبرُ إنها لمصيبةٌ منها الرواسى خيفة تتقلقل
لهفى على الملك الذى كانت به الد نيا تطيب فكل قفرٍ منزل
الظاهرُ السلطان من كانتْ له مِنَنٌ على كل الورى وتطوّل
لهفى على آرائه تلك التى مثل السهام الى المصالح ترسل
لهفى على تلك العزائم كيف قد غفلت وكانتْ قبلَ ذا لا تغفل
ما الرمال تحولتها رِعدة لكنّها إذْ ليس تعقل تعقل
سهمٌ أصاب وما رمى من قبله سهم له فى كل قلب مقتل
أنا إن بكيتُ دما فعذرى واضح ولئن صَبرت فإننى أتمثل
خلف الشهيد لنا السعيد فأدمع منهلة فى أوجه تتهلل

فرحم الله بيبرس وأجزل مثوبته وأسكنه فراديس جنته وجزاه خيرا عن الإسلام والمسلمين .

(١) النويرى : نهاية الأرب ج ٢٨ القسم الثانى ورقة ٣٦٨ — ٣٦٩ .
(٢) ابن إياس ج ١ ص ١١٠ — ١١١

مصادر الكتاب

(١) المصادر العربية

(١) ابن أبي الفضائل (مفضل ...) :
" كتاب النهج السديد والدر الفريد فيما بعد تاريخ ابن العميد "
(Paris 1911, 1920.)

(٢) ابن اياس (+ ٩٣٠ هـ ، ١٥٢٣ م) : أبو البركات محمد بن أحمد .
" كتاب تاريخ مصر " المعروف " ببدائع الزهور فى وقائع الدهور "
(بولاق سنة ١٣١١ هـ) .

(٣) ابن حجر العسقلانى (+ ٨٥٣ هـ ، ١٤٤٩ م) : شهاب الدين بن على .
" رفع الاصر عن قضاة مصر " (مخطوط بالمكتبة الملكية بالقاهرة) .

(٤) ابن خلدون (+ ٨٠٨ هـ ، ١٤٠٥ — ١٤٠٦ م) : عبد الرحمن بن محمد .
" العبر وديوان المبتدأ والخبر " (القاهرة سنة ١٢٨٤ هـ) .

(٥) ابن شاكر (+ ٧٦٤ هـ) : فخر الدين محمد ... بن أحمد الكتبى .
(١) " عيون التواريخ " (مخطوط بالمكتبة الملكية بالقاهرة) .
(٢) " فوات الوفيات " .

(٦) ابن عباس : شافعى بن على بن عباس .
" المناقب السرية المنتزعة من السيرة الظاهرية " (مخطوط بالمكتبة الأهلية بباريس) .

(٧) أبو الفدا (+ ٧٣٢ هـ ، ١٣٣١ م) : اسماعيل بن على عماد الدين صاحب حماه .
" المختصر فى أخبار البشر " .

(٨) أبو المحاسن (+ ٨٧٤ هـ ، ١٢٥٤ م) : جمال الدين بن يوسف ابن تغرى بردى .

"النجوم الزاهرة فى ملوك مصر والقاهرة" (مخطوط بالمكتبة الملكية بالقاهرة) .

(٩) ابن واصل (+ ٦٩٧ هـ) : جمال الدين أبو عبد الله محمد بن سليم

"مفرج الكروب فى أخبار بنى أيوب" (مخطوط بالمكتبة الملكية بالقاهرة) .

(١٠) بيبرس الدوادار (+ ٧٢٥ هـ) .

" زبدة الفكرة فى تاريخ الهجرة " (مخطوط بمكتبة الجامعة المصرية) .

(١١) السيوطى (+ ٩١١ هـ) : جلال الدين عبد الرحمن بن أبى بكر بن محمد .

(١) " تاريخ الخلفاء وأمراء المؤمنين القائمين بأمر الأمة " .

(٢) " حسن المحاضرة فى أخبار مصر والقاهرة " .

(١٢) العينى (+ ٨٥٥ هـ) : بدر الدين محمود .

" عقد الجمان فى تاريخ أهل الزمان " (مخطوط بالمكتبة الملكية بالقاهرة) .

(١٣) القلقشندى (+ ٨٢١ هـ ، ١٤١٨ م) : أبو العباس أحمد .

" صبح الأعشى فى صناعة الانشا " .

(١٤) المقريزى (+ ٨٤٥ هـ ، ١٤٤١ م) : تقى الدين أحمد بن على .

(١) " السلوك لمعرفة دول الملوك " (طبعة الدكتور زيادة) .

(٢) "المواعظ والاعتبار فى ذكر الخطط والآثار" (طبعة بولاق ١٢٧٠ سنة هـ)

(١٥) النويرى (+ ٧٣٢ هـ ، ١٣٣٢ م) : شهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب .

" نهاية الأرب فى فنون الأدب " (مخطوط بالمكتبة الملكية بالقاهرة) .

(١٦) ياقوت (+ ٦٢٦ هـ ، ١٢٢٩ م) : شهاب الدين أبو عبدالله الحموى الرومى .

" معجم البلدان " .

(١٧) اليونينى (+ ٧٢٦ هـ) : الشيخ قطب الدين .

" الذيل على مرآة الزمان " (مخطوط بالمكتبة الملكية بالقاهرة) .

(ب) المصادر الافرنجية

(1) Arnold, Prof. (Sir Thomas)

1. — "The Preaching of Islam."

2. — "The Caliphate."

(2) Barker, Ernest.

"The Crusaders."

(3) Browne, : Edward G.

Vol. II "Literary History of Persia from Firdawsi to Sa'di."

Vol. III "Persian Literature Under Tartar Dominion."

(4) Davies, Rev. E. J.

"Invasion of Egypt in A. D. 1249 (A.H. 647) by Louis IX of France.

(5) Heyd ; W.

"Histoire du Commerce du Levant au Moyen Age."

(6) Joinville, (Sire de)

"Memoirs of the Crusades."

By Villehardouin & Joinville. Translated by Sir Frank Marzials.

(7) King.

"The Knights Hospitallers in the Holy Land."

(8) Lane - Poole, Stanley.

"A History of Egypt in the Middle Ages."

(9) Le Strange (G.).

"Palestine under Moslems."

(10) Muir, (Sir William).

1. — "The Caliphate, its Rise, Decline, and Fall."

2. — "The Mameluke or Slave Dynasty of Egypt."

(11) Nicholson, Prof. Reynold. A.

"Literary History of the Arabs."

(12) Stevenson, W. B.

"The Crusaders in the East."

(13) Cambridge Medieval History, Vol. IV.

(14) Encyclopaedia of Islam.

✣ ✣